صلاة الاستخارة والسياسة الخارجية

مشاري الرويح

لموازنة النزعة التجريدية الغالبة على عملهم عادة ما يضع منظري العلاقات الدولية نقاط التقاء أو مداخل للواقع، أشهرها بالطبع هو أن "تضع نفسك محل صانع القرار" أو كما يقول هانز مورجنثو مؤسس الواقعية التقليدية "أن نرى السياسة الدولية من فوق كتف صانع القرار". احتراساً مما قد تنتجه تلك الممارسة من تيه تأويلي بين تعدد رؤى صانعي القرار وضع منظري التيار السائد في العلاقات الدولية افتراضات عامة متجاوزة لعقائد ومشاعر وأفكار صانعي القرار يمكن ايجاز تلك الافتراضات في التالي: جميع الفاعلين السياسيين يبحثون عن مصالحهم وأنهم معظمي للمنفعة، وأن تلك المنفعة ذات أساس مادي. تجسد تلك الافتراضات نظرية الاختيار العقلاني والتي تحولت الى معادلة كمية: تفضيلات + توقعات= المنفعة المتوقعة. ومن ثم كمنظرين أو كمحللين نضع مجموعة من الاختيارات الممكنة أمام صانع القرارات في موقف ما ونعطي كل اختيار معادلة، ومن ثم نفترض ترتيب التفضيلات الثابت لدى صانع القرار وليكن مثلاً: النفوذ، المحافظة على الموقع الحالي في توازن القوى، البقاء. ثم نضع قيمة ثابتة لتلك التفضيلات في معادلات الاختيارات تعكس هذا الترتيب، بالإضافة الى نسبة توقع حصول كل من تلك التفضيلات لكل من الاختيارات المتاحة، ينتج عن العمليات الحسابية تلك منفعة متوقعة من كل اختيار ويكون السلوك العقلاني هو السلوك الذي يمثل الخيار ذو المنفعة المتوقعة الأعلى. اذن ما نتعامل معه هنا هو فاعل أناني ذو رغبات مادية ولديه قدرة عالية على الحسابات بغض

النظر عن أي معتقدات أو مشاعر أو أفكار قد يحملها هذا الفاعل. وهكذا ندرس الفعل السياسي في العلاقات الدولية، على سبيل المثال، كنت مع نقاش مع احدى الطالبات قريباً تساءلت خلاله إذا كان بإمكانها توصيف "اشعال حرب طائفية" من قبل احدى الدول الإقليمية كأحد الاختيارات العقلانية لصانعي القرار في هذه الدولة. أوضحت لها انه من حيث المبدأ إذا كان يمكن "ملأ" هذا الاختيار أو معادلته بتفضيلات مادية وتوقعات معلوماتية فلا يوجد ما يمنع ذلك تنظيرياً وتحليلياً، خاصة أن تلك المعادلة لا تتضمن مدخلات ذات اعتبارات أخلاقية.

لا أذكر عدد المرات التي وضعت نفسي في محل صانع القرار للقيام بهذا التمرين، أذكر في بداية التخصص كنت أتقمص "ذهنياً" هذا الدور ليوم بأكمله. كذلك أذكر أن في كل مرة كنت أجد صعوبة في حصر الاختيار في إطار مادي معلوماتي بل كانت دائماً ما تغلبني أفكاري ومشاعري وعقيدتي. بل أذكر أن اختياراتي كانت تتغير خلال اليوم، كانت فترات ما بعد الصلوات الخمس مباشرة نقاط تحول وكأن مشاعر الحب والرجاء والخوف التي تحملها معك بعد الصلاة ترتبط بتلك الاختيارات. كنت أحاول جاهداً، غالباً دون جدوى، الفصل بين تلك المشاعر وبين اختيارات سياستي الخارجية المزيفة خوفاً من اتهامي بالبلاهة و"الهبل" كطالب علاقات دولية يفترض أن يحترف أحدث النظريات ومناهج البحث في التخصص. مع ذلك كنت أهمس لنفسي في نهاية اليوم: "هل يصلون؟، ألا يحبون الله؟ يرجون رحمته، يخافونه؟ كيف يفعلون ذلك؟"

من درس العلاقات الدولية بعمق يعلم أن هناك في الواقع حتى هذا السلوك العقلاني: الأناني المادي ليس تلقائي بل يعتمد على مجموعة من المشاعر هي نفسها: الخوف، الحب، والرجاء. بل أن السياسة الدولية تفيض بتلك المشاعر. فتفضيلات صانع القرار وترتيبها اما أن تبنى على خوف (تبعية سياسية)، حب (تبني النموذج الغربي استجابة لقوته الناعمة)، أو رجاء (عضوية في منظمة التجارة العالمية أو اتفاقية استثمار). يتضح هذا المعنى أكثر إذا أخذنا البعد التركيبي للمصلحة بالاعتبار وتعاملنا مع الرغبات المادية كاحتياجات أساسية يشترك في السعي اليها الجميع بينما استخدمنا لفظ المصالح للإشارة الى كيفية تلبية تلك الحاجات الأساسية، فجميعنا نشترك في الرغبة والحاجة الأساسية للأمن والبقاء، ولكن قد نختلف في كيفية تلبية تلك الرغبة: تبعية سياسية؟ اشعال حرب طائفية؟ تخطيط لانقلابات في دول أخرى؟ التحالف مع غير المسلمين ضد المسلمين؟ كل اختيار من كل الاختيارات يحمل في طياته توجيه اما لخوف أو حب أو رجاء لفاعل سياسي آخر، تلك المشاعر التي يبنى عليها التوحيد. ولكن ما علاقة التوحيد بالسياسة الخارجية؟ ما علاقة التوحيد بقراءة ملامح البيئة الدولية، أو تحديد المصالح طبقاً لتلك الرؤية، وتوقع التهديدات لتلك المصالح، بل واختيارات التعامل مع تلك التهديدات، هل يحتاج صانع القرار المسلم استحضار حالة قلبية تجمع بين تقوى الله وحبه، والرجاء في ثوابه عند أو قبل أو بعد التعامل مع تلك الممارسات "الحرفية"؟ طبقاً لمنطق الدولة الحديثة وسياستها الخارجية التي تعتبر مجموعة من الأهداف والتوجهات العامة التي تهدف لخدمة المصلحة الوطنية لا يوجد علاقة.

نحن نعيش في عالم سياسي لا يسمح بتوجيه القلب ناهيك عن الجوارح لله وفي سبيل الله، وندرس وندرّس نظريات تنفي أساساً أي دور للقلب في اختيارات السياسة الخارجية وتستبدله بعقل آداتي حسابي. فالعلاقات الدولية واقعياً ونظرياً من أكثر مجالات التفاعل الإنساني تحصيناً ضد عودة العقائد الدينية بما فيها الإسلام. فهي التعبير الأكبر عن الحداثة، نادي الدول-القومية، والنخب السياسية غير المسلمة التي لا تصلي، أو المسلمة التي تصلي ولكن لديها قدرة مبهرة على ترك معاني التوحيد على سجادة الصلاة والعودة سريعاً لمجتمعها الدولي. ليسوا سواء، فهناك نخب سياسية مسلمة تكتم ايمانها, تستفتي في أحوال القدرة والعجز, وتطلب رخص الاستضعاف حتى يجعل الله لهم مخرجاً. هذا اختيار سمحت به الشريعة الإسلامية في مواقف معينة، فالشريعة الإسلامية، بعكس نظريات العلاقات الدولية تعترف بالمشاعر وتعذرها كالخوف من العدو على ألا يتعدى هذا الخوف الخوف من الله سبحانه وتعالى، والرجاء على ألا يتعدى رجاء المنافع الدنيوية عند الناس ما عند الله. هذا اختيار يجب دراسته وتضمينه ضمن الاختيارات المتاحة لصانع القرار المسلم بدلاً من اتباع التيار السائد، والمسيطر على دراسة السياسة الدولية ليس في الغرب بل في العالم الإسلامي أيضاً، في إخفاء الحالة القلبية المصاحبة لاتخاذ القرار في السياسة الخارجية. فالمسألة ليست وجود حالة قلبية مصاحبة لاتخاذ القرار في السياسة الخارجية بل ما يملأ القلب عند اتخاذ القرار.

ما ذكرته في هذا المقال يعتبر خارج تماماً عن أي وصف حديث لدراسة السياسة خاصة الدولية، في نفس الوقت هي بديهيات إسلامية، هل من الصعب تخيل صانع قرار السياسة الخارجية

المسلم يرمي بمعادلات اختياراته لربه في سجوده يسأله أن يوفقه لما يحبه ويرضاه، بل أن يصلي استخارة قبل اتخاذ قرارت مصيرية في السياسة الخارجية؟ لا أعلم إذا كان صانع القرار هذا موجود في غابة الدول القومية والسيادة الإنسانية والمؤسسات الدولية والنظام الدولي الحديث وبالطبع هو غير موجود في نظريات العلاقات الدولية الغربية النى ندرسها في الجامعات لكن أعلم أن هذا هو صانع القرار الذي أقبل أن أرى السياسة الدولية من فوق كتفه.